قِطَّةُ جَدَّتي وأنا!

تأليف: فاطمة شرارة كمّون
رسم: رامي زكريا

مِنْ أَحَبِّ الأُمورِ إلى قَلْبي قَضاءُ أَيّامِ العُطْلَةِ في الضَّيْعَة.

هُناكَ لا تُوجَدُ قُيود. يُمْكِنُنا اللَّعِبُ خارِجَ البَيْتِ مُنْذُ الصَّباحِ وحَتّى المَساء. نَدْخُلُ المَنْزِلَ فَقَطْ عِنْدَما نَجوع. يُمْكِنُنا الذَّهابُ إلى بُيوتِ الجيرانِ مِنْ دونِ الحاجَةِ إلى

طَلَبِ الإذْن، فَالجيرانُ يَعْرِفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا جَيِّدًا، وأَبْوابُ البُيوتِ مَفْتوحَةٌ دائِمًا لِجَميعِ أَوْلادِ الحَيّ.

مَنْزِلُ جَدَّتي الرّائِعُ تُحيطُ بِهِ حَديقَةٌ واسِعَةٌ مَزْروعَةٌ بِمُخْتَلَفِ أَنْواعِ الأَشْجارِ المُثْمِرَة. وهُناكَ أُرْجوحَةٌ مُعَلَّقَةٌ في شَجَرَةِ الجَوْزِ يُحِبُّ التَّأَرْجُحَ عَلَيْها كُلُّ

أَوْلادِ الحَيّ. في زاوِيَتِها الجَنوبِيَّةِ يوجَدُ قُنٌّ لِلدَّجاج. أَنا في العادَةِ أَبْتَعِدُ قَدْرَ ما يُمْكِنُني عَنِ الدَّجاجِ وعَنِ القُنّ! فأَنا كَما تَعْرِفون، أُفَضِّلُ تَجَنُّبَ الحَيَواناتِ طَوالَ الوَقْتِ وكُلَّما الْتَقَيْتُ بِأَحَدِها، مَهْما كَانَ نَوْعُه، أُغَيِّرُ طَريقي مُبْتَعِدَة. لا أُطيقُ الاقْتِرابَ مِنْها ولا حَتّى لَمْسَها. لا أَدْري لِماذا، ولَكِنْ مُجَرَّدُ التَّفْكيرِ بِلَمْسِها يُثيرُ القَلَقَ والانْزِعاجَ في نَفْسي.

تُرَبّي جَدَّتي قِطَّةً مُمَيَّزَة، لَوْنُ شَعْرِها بُنِّيٌّ غامِقٌ عَلى الظَّهْرِ ويَفْتَحُ لَوْنُهُ عِنْدَ البَطْنِ إلى البُنِّيِّ الفاتِحِ لِيُصْبِحَ أَبْيَضَ تَحْتَ بَطْنِها. عَيْناها مُسْتَديرَتانِ تَمْلَؤُهُما دائِرَتانِ سَوْداوان بِالكَادِ تَرى حَوْلَهما بَياضَ العَيْن. كانَتْ تَمْشي بِرَشاقَةٍ وَخِفَّةٍ وكَأَنَّها تَعْرِفُ كَمْ هي مُمَيَّزَةٌ عَنْ باقي بَناتِ جِنْسِها. ولِكَثْرَةِ جَمالِها كُنْتُ دائِمًا أُفَكِّرُ بِأَنَّني رُبَّما أَسْتَطيعُ يَوْمًا لَمْسَها ولَكِنّي بِالطَّبْعِ لَمْ أَتَجَرَّأْ أَبَدًا.

ذاتَ مَساء، دَخَلَتْ قِطَّةُ جَدَّتي غُرْفَةَ الجُلوسِ حَيْثُ تَتَحَلَّقُ العائِلَةُ حَوْلَ المِدْفَأَة، وبِمُجَرَّدِ دُخولِها قَفَزْتُ إلى المَقْعَدِ وفي اعْتِقادي أَنَّها لَنْ تَصِلَ إلَيَّ هُناك. ضَحِكَ الجَميعُ مِنّي! انْزَوَيْتُ في المَقْعَدِ يَغْمُرُني شُعورٌ بِالخَجَل.

أمّا القِطَّةُ فَاحْتَلَّتْ مَكاني عَلى الأَرْضِ وجَعَلَتْ تَتَمَطّى وتَتَثاءَبُ وكَأَنَّها تُعايِرُني بِأَنَّها اسْتَوْلَتْ عَلى مَكاني!

قالَتْ جَدَّتي: «يا بُنَيَّتي، ما بالُكِ تَهْرُبينَ مِنَ القِطَّة؟ ماذا لَوْ تُحاوِلينَ التَّقَرُّبَ مِنْها؟».

أَجَبْت: «لَكِنّي لا أُحِبُّ لَمْسَها».

فَأجابَتْني: «كَيْفَ تَعْرِفينَ وأَنْتِ لَمْ تُحاوِلي أَبَدًا؟ إنَّ فَرْوَها ناعِمٌ جِدًّا، يَحْلو لِليَدِ مُداعَبَتُه. هَيّا... حاوِلي...».

ابْتَسَمْتُ لِجَدَّتي واسْتَجْمَعْتُ قُوايَ وبَدَأْتُ أَقْتَرِب، وكُلُّ مَنْ حَوْلي يُراقِبُ بِلَهْفَة. تَسَمَّرَتْ يَدي فَوْقَ القِطَّةِ غَيْرَ عارِفَةٍ مِنْ أَيْنَ أَبْدَأ.

شَجَّعَتْني جَدَّتي: «هَيّا يا بُنَيَّتي، ضَعي يَدَكِ عَلى رَأْسِها بَيْنَ الأُذُنَيْن... أَجَلْ هَكَذا... بِخِفَّة... أَكْمِلي...».

بَدَأَتْ يَدي تَسيرُ عَلى جَسَدِ القِطَّة، والدَّمُ مُتَجَمِّدٌ في عُروقي وكَأَنَّهُ يَرْفُضُ نَقْلَ الإِحْساسِ إلى دِماغي... واو... هذا رائِع... إنَّها ناعِمَةٌ بِحَقّ!

أَكْمَلَتْ يَدي المَسيرَ عَلى بَطْنِها... بِبُطْءٍ وخِفَّةٍ حَتّى ذَنَبِها... وما إنْ وَصَلْتُ إلى مُنْتَصَفِ الذَّنَبِ حَتّى الْتَفَتَتِ القِطَّةُ بِسُرْعَةِ البَرْقِ وخَدَشَتْ يَدي بِمَخالِبِها!

صَرَخْت: «آي... لِماذا؟». وصَرَخَ جَميعُ مَنْ حَوْلي صِغارًا وكِبارًا: «آي...».

رَكَضْتُ أَغْسِلُ يَدي وَالدُّموعُ تَنْهَمِرُ مِنْ عَيْنَيّ، لَيْسَتْ دُموعُ الأَلَمِ بَقْدَرِ ما كانَتْ دُموعُ القَهْرِ والإحْساسِ بِالغَدْر! وكَأَنَّها عَرَفَتْ مَدى خَوْفي وارْتِباكي فَأَرادَتِ امْتِحاني!

لَحِقَتْ بي جَدَّتي وقالَت: «نَسِيْتُ أَنَّ ذَنَبَها مَكْسور! بِالتَّأْكيدِ إنَّها تَأَلَّمَتْ حينَ لَمَسْتِ ذَنَبَها!».

فَأَجَبْت: «وهَلْ هذا أَمْرٌ يُمْكِنُ نِسْيانُهُ يا جَدّتي؟ أنْتِ تُدافِعينَ عَنْها؟ أُنْظُري ماذا فَعَلَتْ بِيَدي؟».

قَبَّلَتْ جَدَّتي يَدي وقالَت: «سلامَةُ يَدِكِ». فَأَجَبْتُها: «لَنْ أَلْمِسَ حَيَوانًا في حَياتي مُجَدَّدًا!». ضَحِكَتْ جَدَّتي وَضَحِكَ الجَميع، أمّا أنا فَأَكْمَلْت البُكاء!